الـشَّـمْـسُ مِـنْ حُـسَّـادِهِ وَالـنَّـصْـرُ مِـنْ
قُـرَنَـائِـهِ وَالـسَّـيْـفُ مِـنْ أَسْـمَـائِـهِ[١]
أَيْـنَ الـثَّـلَاثَـةُ مِـنْ ثَـلَاثِ خِـلَالِـهِ
مِـنْ حُـسْـنِـهِ وَإِبَـائِـهِ وَمَـضَـائِـهِ[٢]
مَـضَـتِ الـدُّهُـورُ وَمَـا أَتَـيْـنَ بِـمِـثْـلِـهِ
وَلَـقَـدْ أَتَـى فَـعَـجَـزْنَ عَـنْ نُـظَـرَائِـهِ[٣]

شمس منيرة سوداء

بنى كافور داراً بإزاء الجامع الأعلى على البركة، وطالب أبا الطيب بذكرها فقال يهنئه بها:

[الخفيف]

إِنَّـمَـا الـتَّـهْـنِـئَـاتُ لِـلْأَكْـفَـاءِ
وَلِـمَـنْ يـدَّنِـي مِـنَ الْـبُـعَـدَاءِ[٤]
وَأَنَـا مِـنْـكَ لَا يُـهَـنِّـئُ عُـضْـوٌ
بِـالْـمَـسَـرَّاتِ سَـائِـرَ الأَعْـضَـاءِ[٥]

---

(١) لا يحسد سيف الدولة إلّا الشمس رغم ارتفاعها واتساع دائرة وجودها، ذلك أن النصر حليفه الدائم، وقد اتّخذ السيف اسماً من أسمائه التي تدلّ على عظمته وشرفه وأصالة محتده.

(٢) الخلال، الواحدة خلّة: المزايا الحسنة، من المستبعد أن تقارن الشمس والنصر والسيف بما يتّصف به سيف من صفات إنسانية رفيعة، فهو يرفض الظلم ويأبى الذلّ والخضوع للضعف، والنصر حليفه الدائم.

(٣) توالت الأزمنة بخيلة، فلم تأتِ بالعظماء أمثال سيف الدولة، وهو لمّا كانت الأمة على موعد معه، عجز الزمان عن أن يمدّها بشبيه لسيف الدولة بمواصفاته. وتلك مغالاة تصل إلى حدّ التملّق والكذب؛ فالتاريخ الإسلامي يفيض بذكر من هم أفضل من سيف الدولة بمئات الأميال في الزمان والمكان والمكانة.

(٤) و (٥) يدّني: يقترب. الكفء: النظير، الشبيه. فالمناسبات السعيدة قليلة في حياة البشر، وإذا ما كانت، فإنهم يتبادلون التهنئات. يرى المتنبي أنه كفء لممدوحه، ولذا فهو يهنئ نظيره، ويرى أنه من ممدوحه، وهما اثنان امتزجا بواحد، فكأنه يهنئ نفسه. وتلك مساهمة فيها كثير من المبالغة، واللوم يوجّه للممدوح الذي قبل من المتنبي مُغالاته.

مُسْتَقِلٌّ لَكَ الدِّيَارَ وَلَوْ كَا
نَ نُجُوماً آجُرُّ هٰذَا الْبِنَاءِ[١]
وَلَوَ انَّ الَّذِي يَخِرُّ مِنَ الأمـ
ـوَاهِ فِيهَا مِنْ فِضَّةٍ بَيْضَاءِ[٢]
أَنْتَ أَعْلَى مَحَلَّةً أَنْ تُهَنَّى
بِمَكَانٍ فِي الأَرْضِ أَوْ فِي السَّمَاءِ[٣]
وَلَكَ النَّاسُ وَالْبِلَادُ وَمَا يَسْـ
ـرَحُ بَيْنَ الْغَبْرَاءِ وَالْخَضْرَاءِ[٤]
وَبَسَاتِينُكَ الْجِيَادُ وَمَا تَحْـ
ـمِلُ مِنْ سَمْهَرِيَّةٍ سَمْرَاءِ[٥]
إِنَّمَا يَفْخَرُ الْكَرِيمُ أَبُو الْمِسْـ
ـكِ بِمَا يَبْتَنِي مِنَ الْعَلْيَاءِ[٦]
وَبِأَيَّامِهِ الَّتِي انْسَلَخَتْ عَنْـ
ـهُ وَمَا دَارُهُ سِوَى الْهَيْجَاءِ[٧]

---

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٤، يروى «أستقل» بدلاً من «مُستقل». الآجر: الطوب المشوي. يرى الشاعر أن من حقّ ممدوحه أن ينعم بسعة الدنيا والغنى، لذا فهو يستقلّ ما بيده ولو كان باستطاعته لجعل نجوم السماء آجراً لقصر ممدوحه.

(٢) و (٣) ورد البيتان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٤. خرير الماء: صوته. حتى المياه وهي سرّ الحياة لكافة الكائنات؛ فالممدوح يسمو لذا فهو الوحيد الذي يستحقُّ التهنئة في هذا الوجود حيثما حلّ.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٤. وما يغري كافوراً أنه يُحبّ أن يسمع بأن ما على الأرض من بشر ودوابّ؛ فالغبراء ملكه والخضراء.

(٥) السمهرية: الرماح الصلبة، المنسوبة إلى سمهر وهو رجل كان يقوّم الرماح. من مظاهر غنى كافور سعة بساتينه حيث يعمّ الخير، تحميها رجال وجند يستعملون رماحاً سمهرية.

(٦) و (٧) إن مدعاة فخر الإنسان في هذا الوجود ما يستطيع تحقيقه في حياته من نجاحات =

وَبِـمَـا أَثَّـرَتْ صَـوَارِمُـهُ الْـبِـيـ
ـضُ لَـهُ فِـي جَـمَـاجِـم الأعْـدَاءِ[١]
وَبِـمِـسْـكٍ يُـكْـنَـى بِـهِ لَـيْـسَ بِـالْـمِـسْـ
ـكِ وَلَـكِـنَّـهُ أَرِيـجُ الـثَّـنَـاءِ[٢]
لَا بِـمَـا يَـبْـتَـنِـي الْـحَـوَاضِـرُ فِـي الـرِّيـ
ـفِ وَمَـا يَـطَّـبِـي قُـلُـوبَ الـنِّـسَـاءِ[٣]
نَـزَلَـتْ إِذْ نَـزَلْـتَـهَـا الـدَّارُ فِـي أَحْـ
ـسَـنَ مِـنْـهَـا مِـنَ الـسَّـنَـا وَالـسَّـنَـاءِ[٤]
حَـلَّ فِـي مَـنْـبِـتِ الـرَّيَـاحِـيـنِ مِـنْـهَـا
مَـنْـبِـتُ الْـمَـكْـرُمَـاتِ وَالآلَاءِ[٥]

= وانتصارات. لقد واتت كافوراً نجاحات عديدة، لقد تبوّأ عرش مصر بطموحه وجدّه وحسن التوفيق الذي حالفه؛ وهذا ما جعله يترك أثراً في تاريخ هبَة النيل؛ فابتنى دوراً عانقت السماء، ولقد تمكّن من دفع الفاطميين عن مصر طوال حكمه، فحافظ على استقلال ذلك الإقليم بجنده وجيشه الملتزم بأوامره.

(١) كانت الانتصارات متوالية شرقاً وغرباً فوقف بوجه أطماع الحمدانيين في الشرق وغيرهم كما صدّ الفاطميين في الغرب.

(٢) الأريج: توهج ريح الطيب. تفوّق المتنبي في مدحه لكافور؛ فالمسك زكي الرائحة، تتمثل فيه راحة المشاعر وطمأنينة النفس، فكان أن يُذكر أبو المسك بجميل الصفات والأثر الطيب في نفوس رعيّته.

(٣) الحواضر: المدن الآهلة بالسكّان. الريف: حيث يكثر الزرع والخضرة، ويعمّ الخصب. يُطبي: يستميل. إن سرّ عظمة كافور في أعماله التي تنمّ عن نبوغ وعقل نيّر، فابتنى العلياء وقاد الجيوش وانتصر على أعدائه فشاع صيته في البلاد، وهذا يلذّ له، خلاف من المتحضرين بيوتاً فيفتخرون بها أو من يعمل على استمالة النساء بأمواله وما يُنفقه عليهن تقرّباً وتحبّباً.

(٤) و (٥) السنى بالقصر: الضوء، والسناء: العظمة والسمو. الدار أحجار وأثاث، وكلّ ذلك لا يُساوي إنساناً، حتى ولو كان على هامش الحياة، فكيف بمن كان بمنزلة كافور، فنزوله في تلك الدار رفعة لها، فقد حلّ فيها من سمت همته وبلغ العلياء واعتلى عرش العظمة. ورغم الاهتمام بتلك الدار وتزيينها بما يريح النفس والعين من أثاث وبساتين وزروع، فقد حلَّ فيها نبت المكرمات والفضائل والكرم.

تَـفْـضَـحُ الـشَّـمْـسَ كُـلَّـمَـا ذَرَّتِ الـشَّـمْـ
ـسُ بِـشَـمْـسٍ مُـنِـيـرَةٍ سَـوْدَاءِ[١]
إِنَّ فِـي ثَـوبِـكَ الَّـذِي الـمَـجْـدُ فِـيـهِ
لَـضِـيَـاءً يُـزْرِي بِـكُـلِّ ضِـيَـاءِ[٢]
إِنَّـمـا ٱلْـجِـلْـدُ مَـلْـبَـسٌ وَابْـيـضَـاضُ الـنَّـ
ـفْـسِ خَـيْـرٌ مِـنَ ابْـيِـضَـاضِ الـقَـبَـاءِ[٣]
كَـرَمٌ فِـي شَـجَـاعَـةٍ وَذَكَـاءٌ
فِـي بَـهَـاءٍ وَقُـدْرَةٌ فِـي وَفَـاءِ[٤]
مَـنْ لِـبِـيـضِ الْـمُـلُـوكِ أَنْ تُـبْـدِلَ الـلَّـوْ
نَ بِـلَـوْنِ ٱلْأُسْـتَـاذِ وَالـسَّـحْـنَـاءِ[٥]
فَـتَـرَاهَـا بَـنُـو الْـحُـروبِ بِـأَعْـيَـا
نٍ تَـرَاهُ بِـهَـا غَـدَاةَ الـلِّـقَـاءِ[٦]

---

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٥، يروى «يَفضح» بدلاً من «تفضح». يحمل هذا البيت في طيّاته هجاءً مرًّا؛ فالشمس نور ودِفء ونعمة الوجود، فإذا بهذا ينكسف وتخفيه ظلمة قاتمة سوداء بسبب نور أسود انعدمت فيه الرؤية؛ إنها ظلمة كافور.

(٢) يزري: يحقر. يحتوي ثوب كافور على امرئ تجسّدَت فيه كلّ عناصر الضياء، لذا اختفت الشمس كما اختفى ملوك ذلك الزمن لوجود من أمكنه أن يكسف أنوارهم بسطوع نجمه في سماء تلك الديار.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٥. القباء: الثوب. الجلد رداء خارجي، ولا دخل فيه للإنسان، فاللّه عزّ وجلّ خلق البشر وميّزهم بألوانهم وأشكالهم، فاختلف كلّ ذلك لحكمة يعلمها اللّه؛ وإنما المعوّل على أخلاق البشر وطباعهم وميولهم ورغباتهم وما يتركونه في هذه الحياة. وهذا سرّ عظمة كافور.

(٤) راح الشاعر يعدّد الفضائل التي يتمنّى كلّ إنسان أن تتوفر فيه؛ وهذا ديدان الشعر التكسّبي في الشعر العربي، الكرم، الشجاعة، الذكاء، ويظهر دهاء المتنبي في ذكره بهاء المنظر، فضلاً عن الوفاء بالعهد والوعد، وذلك تذكير من المتنبي لكافور بما وعده به.

(٥) و (٦) السحناء: الهيئة. يودّ الملوك البيض لو استحالوا إلى زنوج في ساحة الحرب =

يَــا رَجَــاءَ الْــعُــيُــونِ فِــي كُــلِّ أَرْضٍ
لَــمْ يَــكُــنْ غَــيْــرَ أَنْ أَرَاكَ رَجَــائِــي (١)
وَلَــقَــدْ أَفْــنَــتِ الْــمَــفَــاوِزُ خَــيْــلِــي
قَــبْــلَ أَنْ نَــلْــتَــقِــي وَزَادِي وَمَــائِــي (٢)
فَــارْمِ بِــي مَــا أَرَدْتَ مِــنِّــي فَــإِنِّــي
أَسَــدُ الْــقَــلْــبِ آدَمِــيُّ الــرُّوَاءِ (٣)
وَفُــؤَادِي مِــنَ الْــمُــلُــوكِ وَإِنْ كَــا
نَ لِــسَــانِــي يُــرَى مِــنَ الــشُّــعَــرَاءِ (٤)

= حتى يُرعبوا أعداءهم، ذلك أن سواد اللون مخيف لأعدائهم، فضلاً عن قوّة جأش من اتصف من الزنوج بالشجاعة والثبات في الحروب، فلا يفرّون كما يفعل بعض الملوك من البيضان.

(١) و (٢) أمنية المتنبي أن يرى كافوراً، لذا راح يجوب الأرض مفتشاً عن أمنيته في الحياة، فوجدها أخيراً متمثلة بكافور، فكان على موعد مع تحقيق رجائه. ولقد عانى كثيراً حتى أدرك أمنيته، لذا فقد اخترق الصحراوات الموحشة، فإذا بتلك المفاوز تلتهم خيوله وتستنفذ زاده وتودي بما لديه من المياه، ورغم ذلك فإنه لم يعرف الملل طريقاً إليه، وهو مصمم على الوصول إلى كافور.

(٣) و (٤) الرواء: المنظر. يصرح المتنبي ببغيته؛ إنه يطلب ولاية، وكافور بيده أن يمنحه ما يرغب به، ولو فعل لمات المتنبي الشاعر، وإن نعم المتنبي الإنسان بالإمارة. يَدّعي المتنبي أنه قادر على القيام بأعباء الإمارة ذلك أن قلبه قلب آدمي، ولكنه في الحقيقة أسد، تتمثل به الشجاعة وهمّة الملوك ومهابة الأسود وقيادتهم، فضلاً عن قلب يحمل هموم الملوك وآمالهم وأحلامهم رغم أنه شاعر ينتمي إلى بائعي الكلام في سوق التملّق والشعر التكسبي.